بـــادس
حاضرة بلاد الريف في المغرب

د. عُمر أشهبار

دكتوراه التاريخ الحديث – جامعة ابن طفيل
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي - وزارة التربية المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يستعرض هذا المقال جوانب من تاريخ حاضرة بادس الإسلامية، وهي مدينة سادت ذات يوم وكانت منارة من منارات شواطئ المتوسط في المغرب الأقصى، والتي ساهمت في صياغة فصول من تاريخ الغرب الإسلامي، وانفتاح المغرب على الخارج، خاصةً بلاد الأندلس. وقد تميزت المدينة بمختلف الجوانب التي تؤكد على حضارتها، حيث شهدت عمرانا ضم المرافق التي ميزت المدن الإسلامية خلال العصر الوسيط، كما اشتهرت بإشعاعها الديني والعلمي، واستقبال هجرة أندلسية مهمة، ونشاط اقتصادي بارز. مما يؤكد على الحضارة التي أنشأها سكان هذه المنطقة من المغرب الأقصى عبر تاريخهم الحافل بالمآثر والمعالم. وتزامن أفول إشعاع مدينة بادس مع الاحتلال الأخير لجزيرتها سنة ١٥٦٤م من قبل الإسبان.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٦ يناير ٢٠١٥

تاريخ قبـول النشـر: ١٥ أبريل ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

القوطيين، صناعة السفن، الأندلس، الدولة المرينية، الاحتلال الإسباني

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عُمر أشهبار. "بادس: حاضرة بلاد الريف في المغرب".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص٤٣ - ٤٨ .

يندرج هذا الموضوع في البحث عن إحياء المعالم الحضارية المندرسة بمنطقة الريف،[١] شمال المغرب، التي لعبت في السياق العام للتاريخ الوطني المغربي دورا بارزا، خاصةً قبل وقوع مدينة بادس في الأسر الأجنبي. تعتبر بادس أهم مدينة نشأت بساحل الريف الأوسط. ووقع اختلاف حول تأسيسها، لكن تتفق جل المصادر على أن لهذه المدينة أبعادًا حضارية أعطت لها إشعاعًا متميزًا في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد استفادت المدينة من جزيرة بادس التي شكلت مرسى لها.

أولاً: التأسيس والموقع

ذكر مارمول كاربخال أن تأسيس المدينة كان على يد القوطيين، وأنها تعرضت بعد ذلك للتخريب،[٢] غير أن نظرة مارمول تلك لا تستند إلى أساس مرجعي، ما لم يقع تحقيقها من الدراسات المتعلقة بالعصر القديم، وهي وحدها التي تملك الفصل في هذا الموضوع. في حين تحدث الحسن الوزان عن احتمال تأسيس مدينة بادس على يد الأفارقة، حسب تعبيره،[٣] وهو يعني بذلك في الغالب إرجاع الحدث إلى الفترة الإسلامية الأولى. وبدورنا نرجح هذا الرأي الأخير، كما نعتقد أنه قد جدد بناء المدينة أثناء الفتوحات الإسلامية مثل عدد من المدن المغربية الساحلية. لكن هذا يضعنا في الموقف الصعب لمعرفة تاريخ ذلك. ولا يمكننا أن نقبل بسهولة ما نقله أبو القاسم الزياني حين ذكر أن بناء بادس الإسلامية تم سنة (٩٠هـ) من لدن أحد أمراء لواتة الذي يحمل اسم بادس.[٤] وقد أشار أبو عبيد البكري عند حديثه عن مدينة بادس إلى كونها أحد مراسي بلد النكور الغربية.[٥] وتعتبر النكور أول إمارة إسلامية في الغرب الإسلامي.

ويبدو أنه في مقابل تراجع مكانة إمارة النكور ازدادت أهمية بادس، لاسيما بعد تخريب النكور سنة (٤٧٣هـ/١٠٨٠م) على يدي المرابطين. غير أن الشريف الإدريسي (٤٩٣هـ - ٥٥٩هـ/١١٠٠ - ١١٦٦م) قال بعد نصف قرن من سقوط النكور: "وكانت بادس فيما سلف مدينة كبيرة لكنها خربت ولم يبق لها رسم".[٦] وإذا كانت مدينة بادس لم يبق منها شيء في منتصف القرن السادس الهجري،

حسب الإدريسي، فإن هناك من الإشارات المصدرية ما يفيد أن حكم الإدريسي كانت تنقصه الدقة، بل هو حكم يتناقض مع ما ذكره الشاهد عيان، أبو بكر علي الصنهاجي، الشهير بالبيدق، حينما أشار إلى مرور الجيش الموحدي ببادس سنة (٥٣٦هـ) مع عبد المومن الموحدي. وقد تحدث الشاهد عن قصبة بادس التي حل بها الجيش الموحدي أثناء تراجعه عن غمارة الساحلية واتجاهه شرقا نحو الريف، في طريقه إلى مدينة مليلة.[٧]

وكيفما كان الأمر، فإن مرحلة إشعاع بادس انطلقت مع التدمير النهائي لإمارة النكور من لدن جيوش المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين، أواخر القرن الخامس الهجري، إلا أن معلوماتنا عن بادس المرابطية والموحدية تبقى شحيحة إلى حد ما، بسبب قلة المصادر. ولا نعرف من حكام بادس ما قبل القرن العاشر سوى المدعو يعيش، عامل الناصر الموحدي، وهو الذي بنى سور بادس وقصبتها سنة٦٠١هـ، خوفا من فجأة البحارة الأجانب.[٨] ولازالت آثار هذا السور واضحة إلى اليوم، كما توضح الصورة الموالية. ولكننا نعرف أن حضور بادس كمرسى متوسطي لمملكة فاس امتد إلى القرن العاشر الهجري (١٦م)، حتى قام التنافس بين عثمانيي الجزائر والإسبان من أجل السيطرة على جزيرتها كموقع استراتيجي للقرصنة البحرية.

تنامت أزهى فترات بادس مع حكم الدولة المرينية، شأنها في ذلك شأن مراكز أخرى على ساحل الريف، كغساسة والمزمة. فعن العصر المريني وصلتنا معطيات بأسماء حكام بادس من قبل المرينيين، مثل ياسين بن الوزير الوطاسي، الذي كان يتحكم في بلاد النكور كلها سنة ٦٥٠هـ، ويحيى بن الوزير الوطاسي حاكمها سنة ٦٩١هـ وذلك قبل أن يحكم المرينيون سلطتهم الكلية على بلاد الريف ويطردون بني عمومتهم بني وطاس من حصن تازوطا،[٩] على عهد أبي يعقوب يوسف (٦٠٩- ٦٨٥هـ). وسيستمر التحكم الوطاسي، خلفا للمرينيين إلى عهد محمد البرتغالي (١٥٠٤-١٥٢٤م).

تتميز مدينة بادس بموقعها الجغرافي الاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط عند حدود قبائل الريف الأوسط، حيث تقع على الجزء الساحلي الشمالي من قبيلة بني يطوفت، وتحدها من جهة الشرق قبيلة بقّوية، ومن جهة الغرب قبيلة بني بوفراح. ولا شيء يمنع من أن نقدر أن ظهور مدينة بادس كانت مبادرة بني يطوفت، انطلاقًا من قدم استقرار القبيلة في المكان والحدود نفسها، ولعل ظهور المدينة كان نتيجة لزحف سكان القبيلة نحو الساحل، على غرار باقي قبائل الحوز البادسي الساحلي. ومما لا شك فيه؛ أن الموقع الاستراتيجي لبادس ساهم في الأدوار التاريخية والحضارية التي لعبتها هذه المدينة، كما استفادت بادس من ميناءها بالجزيرة المجاورة لها، المسماة جزيرة بادس.[١٠]

ثانيًا: البعد الحضاري لمدينة بادس

تعلو مباني المدينة في المساحة المنبسطة الضيقة الوحيدة المنحصرة بين القسم الأخير من مصب واد يطلق عليه حاليا اسم "إزلافن"، المعروف قبل القرن السادس عشر بواد بادس، ابتداء من نقطة التقاءه برافده واد كركر، ويحمي تلك المساحة من جهة الشرق ثلاث مرتفعات (٣٠٠ متر) شديدة الانحدار، تفصل بينها مسيلة صغيرة يسير مجراها بمحاذاة السور الغربي، وهناك عدوة الصف مقابل عدوة الركيبة.[١١] كانت مدينة بادس تضم مجموعة من المرافق العسكرية والدينية والحرفية والتجارية، كما كان يوجد فيها حصن، وكان بابها الرئيس يطل على الزاوية الجنوبية الغربية.[١٢] لكننا في الوقت الراهن لا نستطيع تقديم تفاصيل دقيقة عن تلك المرافق للحالة الرديئة التي توجد عليها. إلا أننا عثرنا على رسم يظهر سور مدينة بادس وبعض مرافقها الأساسية.

كما تميزت بادس باحتضانها لعدد من الأسواق،[١٣] أما المرافق التجارية الأخرى فتجلت في الدكاكين التي تتموقع وسط المدينة، حيث توجد الساحات، ويقع المسجد في الساحة قرب السوق، وجرت العادة بإقامته بجوار القصبة، لتسهيل انتقال الحاكم، وقد ذكر مارمول كاربخال في هذا الصدد أن مسجد بادس كان كبيرا، محاطا بسور قديم،[١٤] والمدينة مزودة بالمؤن بشكل دائم وجيد.[١٥]

زار لسان الدين بن الخطيب مدينة بادس في القرن الثامن الهجري، ووصفها بعبارات جميلة، قائلاً: "بدأت بحمدلة الرقعة، وبركة البقعة، ومدفن الولي... بلدة السراوة والشجاعة، والإيثار على فرض المجاعة، والنفوس الأوابة إلى الله الرجاعة، حيث البر والموت والخشب الذي ينشأ من كل منحوت والبأس والإقدام، والفاكهة الطيبة، والإدام، ورب الجبال، وفضل المدافعة لصهب السبال...".[١٦]

انتشر التصوف في حاضرة بادس، واحتضنت العديد من الأولياء، ونذكر من بينهم أبي يعقوب يوسف بن عبد الله الزهيلي (٦٤٠-٧٣٤هـ).[١٧] كما استقر ببادس عدد من رجال الفقه والأدباء والعلماء، وعلى غرار الحواضر المعروفة آنذاك كان ببادس الجامع الأعظم الذي صار ملتقى للعلماء الوافدين من الأندلس وفاس وسبتة.[١٨] ويوجد كثير من النصوص في المخطوطات التي تكفلت بحياة الصلحاء والعلماء الذين فضلوا الإقامة ببادس، فمثلاً قال المؤلف أبو الحسن علي المراكشي في مخطوطه، الذي ألفه في مناقب شيخ زمانه الحاج حسون البقيوي الأدوزي، قال: "كنت جالسًا بمدينة بادس أيام إقامتي بها عند الشيخ الأبر الولي الصالح أبي محمد عبد الله التستوري في جامعها الأعظم، وكنا نتكلم مع أهل بادس عن كرامة الأولياء".[١٩]

وعاش في مدينة بادس عدد من العلماء والشعراء والفلاسفة الذين أعطوا لهذه المدينة إشعاعًا علميًا ذاع صيته في مختلف البقاع، ومن بين هؤلاء نذكر الفيلسوف ابن السبعين.[٢٠] كما أنجبت بادس مؤرخين وأدباء بارزين، منهم أبو الحسن المراكشي، صاحب مناقب الأولياء، وعبد الحق البادسي، صاحب "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف".[٢١] وزار بادس مؤرخون وأدباء من مختلف البلدان مثل الشريف الإدريسي،

والحسن الوزان، والعلامة ابن مرزوق، وشاعر الأندلس لسان الدين ابن الخطيب.

ثالثا: بادس والأندلس

عرفت بادس هجرة أندلسية مهمة، نظرًا لعلاقاتها مع الأندلس، خاصةً في العهد المريني، إذ أن بنو مرين تخلوا عن بعض المدن المتوسطية المعروفة خلال العصر الوسيط، مثل مليلة والمزمة، فاتجه اهتمامهم إلى مدينة بادس ومرساها، نظرًا لعلاقاتهم البحرية واتصالاتهم بفاس، وكان لهذا الاهتمام دور في تعزيز العلاقات مع الأندلس، وربط الاتصال المباشر مع مالقة. ومن المؤكد أن الطريق الصعب، الواصل بين بادس وفاس، عبر صنهاجة السراير وممر واد ورغة، أصبح مطروقًا أكثر من ذي قبل، بفضل المراقبة الممارسة على سكان جبل الحوز البادسي الداخلي، بتعاون بين السلاطين وحكام بادس، والنتيجة أن الطريق أصبح مفتوحًا لانتقال الأشخاص ورؤوس الأموال والحرف إلى بادس.[٢٢] وقد قدم لنا عبد الحق البادسي أمثلة من هذه الهجرات، وهو نفسه استوطن أحد أجداده غرناطة، ومنها انتقل إلى بادس،[٢٣] ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها البادسي أن الشيخ الصالح الحسن بن هنا البادسي حدثه عن قدوم الشيخ محمد المراكشي على بادس من مرسى هنين،[٢٤] كما حدثه الحاج علي المؤذن الأندلسي عن الشيخ الحسين، وهو من أهل مالقة، وكان هذا الأخير زاهدًا في الدنيا وخرج متجردًا للعبادة، قدم على بادس، ونزل برابطة البحر.[٢٥]

ويذكر أن ملك غرناطة ابن الأحمر تنازل في (١٧ مارس ١٤٩٣م) عن جميع ممتلكاته الخاصة لصالح قشتالة، وفي أكتوبر من السنة نفسها توجه إلى شمال المغرب، حيث جرت هجرة كبرى اختار أفرادها قبائل الريف وغمارة ومدينتي شفشاون وتطاوين،[٢٦] مما يؤكد استقرار العنصر الأندلسي في حاضرة بادس بأعداد كبيرة بعد سقوط غرناطة، خاصةً أن بعض المهاجرين اختاروا هذه المنطقة لموقعها الإستراتيجي. يبدو أن بادس استقبلت بالخصوص العناصر الأندلسية التي توافدت عليها من مدينة مالقة، فأهل هذه المدينة خرجوا إلى بادس، وأهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وكان من الطبيعي أن تمتد آثار حروب غرناطة إلى بادس وحوزها، نتيجة ارتباطها المباشر بمالقة.[٢٧] وبعدما أصدرت ملكة قشتالة إيسابيلا الكاثوليكية (Isabel la Catolica)، يوم ١٤ فبراير ١٥٠٢م، مرسومًا يقضي بطرد الأندلسيين من الأندلس، عرف شمال المغرب هجرة أندلسية أخرى استقر بعض أفرادها بقبائل الريف وغمارة.[٢٨]

وقد ارتبطت بعض القرى في حوز بادس بالقرى الأندلسية مثل قرية أكني، التي كان رئيسها يدعى الحاج محمد بن عبد القادر الأندلسي الذي استقر ببادس أولا ثم غادرها لبني بوشبت، ثم إلى بني بوفراح ليتخذ أكني مستقرًا له،[٢٩] وفي هذا الصدد ذكر المؤرخ حسن الفكيكي نماذج متعددة من الأسر الأندلسية التي استقرت ببادس أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي.[٣٠]

من خلال ما سبق؛ يتضح أن الوضعية السكانية لحوز بادس قبيل الاحتلال الأول لجزيرته سنة ١٥٠٨م، كانت مختلفة عن العصور السابقة بانضمام مجموعات واردة من كل المناطق والأقاليم، خاصةً من بلاد الأندلس. كما استقر أيضًا ببادس البورغواطيون[٣١] والعرب.[٣٢] وكذلك استقبلت بادس ساكنة يهودية، يرجع تاريخ وجودها في المنطقة، هي الأخرى، إلى مرحلة سقوط غرناطة، حيث نزح هؤلاء اليهود من مدن الساحل الجنوبي للأندلس (مالقة، غرناطة وألميرية) نحو بادس، واضطروا إلى مغادرتها، والتوجه نحو الداخل، خاصةً إلى سنادة،[٣٣] وأيضا تارجيست[٣٤] بالنسبة لأولئك الذين لم يقصدوا فاس وباقي المدن الكبرى.[٣٥]

إن الموقع الجغرافي المهم لبادس وغنى مؤهلاتها الطبيعية، فرض على سكانها التعاطي أكثر لنشاطي الصيد والتجارة، خاصةً وأن المنطقة ضعيفة الإنتاج من الحبوب، وبالتالي فالسردين وغيره من السمك كان يمثل الوجبة الأساسية لمعظم السكان.[٣٦] كما أن موقعها أهلها أن تكون على علاقات متواصلة مع الساحل الأندلسي، لاسيما مالقة التي توجد في الاتجاه المقابل لها. مما لا شك فيه؛ أن البحر قد شكل لمدينة بادس أهمية كبيرة، لا سيما أن الصيد والتجارة كانا أهم الأنشطة الاقتصادية التي زاولها البادسيون، إلا أن البحر كان كذلك مصدرًا لحالة الفزع والقلق الدائم الذي كان يعيشه سكان بادس، وسكان السواحل الريفية عموما، فالبادسي يرسم صورة واضحة عن هذه الحالة، والتي كان السبب فيها تردد السفن الأوربية على هذه السواحل، حيث أذاقوا الناس سوء العذاب، ولم ينفع سكان الساحل الريفي سوى الاستنجاد بالأولياء والصلحاء، الذين بفضل "بركتهم" حميت السواحل، ولم يستطع النصارى الاقتراب من بعض النقط المائية للتزود بالماء العذب الذي اعتبر عنصرًا أساسيًا في الرحلة البحرية، وكثيرًا ما كانت تستغل هذه النقط المائية للسطو على السفن وبعض الربط الساحلية.[٣٧] وعلى الرغم مما يمكن أن تحمله الكرامة الصوفية من تفسيرات وما تحويه من قراءات، إلا أن ذلك لا يمنع من اعتمادها نظرًا للرمزية التي تحملها في طياتها.

رابعًا: بادس مركز عالمي لصناعة السفن

كانت ببادس دارًا للصنعة خارج أسوار المدينة،[٣٨] وفي هذه الدار كانت تصنع سفن حربية كبيرة، وزوارق خفيفة ذات مجاديف، وأيضًا قوارب صغيرة للصيد البحري.[٣٩]

أضحت مدينة بادس مركزًا لصناعة السفن وتصدير الخشب إلى مدن البحر المتوسط المغربية، وفي مقدمتها تطاوين وسبتة،[٤٠] وأيضًا إلى المدن الأوربية مثل مالقة وجنوة والبندقية،[٤١] وبعض مدن المشرق. ويحدثنا الوزان عن أنشطة تجار البندقية ببادس، حيث تعودوا على الإتيان إليها مرتين في السنة، للتجارة معها مبادلة ونقدًا، بل إنه انطلاقًا من مرسى بادس كانت مراكب البندقية تحمل الركاب المسلمين باتجاه تونس، وأحيانًا إلى البندقية، أو حتى

الإسكندرية وبيروت.[٤٢] وكان يتردد على بادس كثيرًا تجار جنوة، ودخلت ضمن الفضاء الذي حددته معاهدة تجارية وقعها أبو عنان المريني مع بيزة سنة (٧٥٩ هـ)، وذلك من خلال التنصيص على "البلاد الغربية والشرقية والأندلسية".[٤٣] وصارت مدينة بادس المركز الرئيسي المزود للمراسي المتوسطية بالخشب، خاصةً مراسي ترغة وتطاوين والعرائش، وانضاف إلى قائمة زبناءها الأتراك،[٤٤] فتيطاوين مثلاً كان لها حقل غابوي من احتكارها لقطع الأخشاب بحوز بادس الغربي، وكانت عمليات قطع أخشاب الأرز وصناعة السفن تتم تحت إشراف كل من الوطاسيين وحكام تطاوين، فكل جانب من الجانبين كان له حقله الخاص في جبال حوز بادس، واحد متصل بوادي مسطاسة، وهو الذي كان تحت هيمنة تطاوين، أما الوادي المحتكر من طرف فاس الوطاسية فهو وادي بني يطوفت.[٤٥]

ومن هذين الوادين كانت جذوع أشجار الأرز تنحدر إلى دار الصناعة الواقعة آنذاك على الضفة اليمنى من مصب واد بادس، وكان مرسى تيطاوين لا يشكو أبدًا من الخصاص في المادة الأولية لصناعة السفن.[٤٦] وفي سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٦م) وما بعدها، صارت بادس المركز الأول لصناعة السفن بساحل البحر المتوسط.[٤٧] وكانت تزود أيضًا الأتراك بالسفن، فمثلاً في سنة ١٥٣٦م، كانت أوراش بادس قد أنهت صناعة خمس وعشرين سفينة، خمس عشرة منها لصالح الأتراك والعشر الباقية داخلة في ملك أبي حسون.[٤٨] وأقام السلطان المغربي السعدي محمد الشيخ في بادس مصنعًا للسفن قرب غابات البلوط والصنوبر، وفي (١٥٤٩م-١٥٥٠م) كان (٥٠٠) من الحطابين يقومون بقطع الأشجار بأمر من السلطان في منطقة بادس، وينقلونه عبر البحر إلى سلا لصنع (٤) غليونات كبرى، كما صنعت (٤) غليونات ببادس استخدم فيها بحارة أوربيين تحت قيادة الأتراك.[٤٩]

نعتقد أن شهرة مدينة بادس خلال العصر الحديث تعود إلى الأدوار التاريخية المهمة التي لعبها مرساها، حيث ساهمت مرسى بادس في انفتاح المغرب على العالم، وانفتاح الحوز البادسي على المراسي المغربية، خاصةً في أواخر العصر الوسيط، وغدت جزيرة بادس ميناء فاس بدون منازع، خاصةً في العهد المريني، حيث اختاروها مرسى بدل سبتة، وصارت تربط علاقات اقتصادية مهمة مع الديار الأندلسية،[٥٠] والدول المتوسطية عمومًا. وكان مجموع التجار النشيطين بمرسى بادس لهم وزن مهم، وأبانوا عن حسن تنظيم عناصرهم الذين كانوا يساهمون بأموالهم في تجهيز السفن وتسليح البحارة،[٥١] وكان هؤلاء التجار يشكلون جماعة قوية لها كلمتها في باب سياسة ملوك فاس، والتجارة بمرسى بادس كانت على درجة مهمة من النظام والضبط، فالتجار يستعملون تقنيات متطورة تتمثل في سجلات مزدوجة تسجل على صفحاتها الصادرات والواردات والنفقات والمدخولات والقروض المتوسطة الأمد للاستخلاص في مواقع مختلفة، مثل ما بين بادس ومالقة، في حين كانت بعض الجمعيات التجارية حاضرة بالبلدة وهدفها الدفاع عن مصالحها المشتركة وصيانتها أمام تصرفات ممثلي السلطة المركزية.[٥٢] وكان استئجار السفن التجارية أمرًا جاريًا، وقد كان المركب ينقل البضائع من بادس إلى مالقة بثمانين دينارًا، وكانت كل الخدمات والرواتب تؤدى بالدينار.[٥٣]

خاتمة

كانت نهاية حاضرة بادس التاريخية مع الاحتلال الأخير لجزيرتها في سبتمبر/ شتنبر ١٥٦٤م،[٥٤] من طرف الإسبان، وكان ذلك العامل الأساسي في اندثار هذه الحاضرة، حيث اضطر السكان إلى مغادرتها بدون رجعة، فلم تحي بعد ذلك لأنها فقدت كل وظائفها، وصارت عرضة للقصف من طرف الإسبان المحتلين لجزيرتها، وكان لهذا الاحتلال تداعيات وانعكاسات على سكان قبائل ساحل الريف الأوسط، خاصةً على النشاط البحري الذي كان يعتمد عليه الناس في نشاطهم الاقتصادي، وأنزل احتلال الإسبان للجزيرة البادسية ضربة قاصمة بالبحرية المغربية التي كانت تقف بالمرصاد لأساطيل الغزاة المسيحيين، لاسيما وقد تبع ذلك إقدام إسبانيا على مهاجمة القوات البحرية في تطاوين خلال نوفمبر من سنة ١٥٦٤م، وقيامها بإغلاق مصب نهر تطاوين.[٥٥]

خلف ضياع بادس أصداء مفجعة ترددت عبر جوانب المغرب كافة، فقد كان مرسى بادس آخر ميناء تحت السيادة المغربية على السواحل المتوسطية، ومع فقدان هذا الثغر، وفي ظل الاحتلال الإسباني والبرتغالي، انغلقت أبواب البحر المتوسط على المغرب، هذا البلد الذي قام بدور كبير في المبادلات بين أوربا وإفريقيا جنوب الصحراء، إذ ذاك لم يبق للسكان ما يربطهم بمدينتهم (أي مدينة بادس)، ففضلوا الجلاء عنها والهجرة إلى مناطق وجهات أخرى.

الملاحق:

صورة رقم (١)

من بقايا سور بادس

المصدر: تصوير عمر اشهبار، بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠١٣.

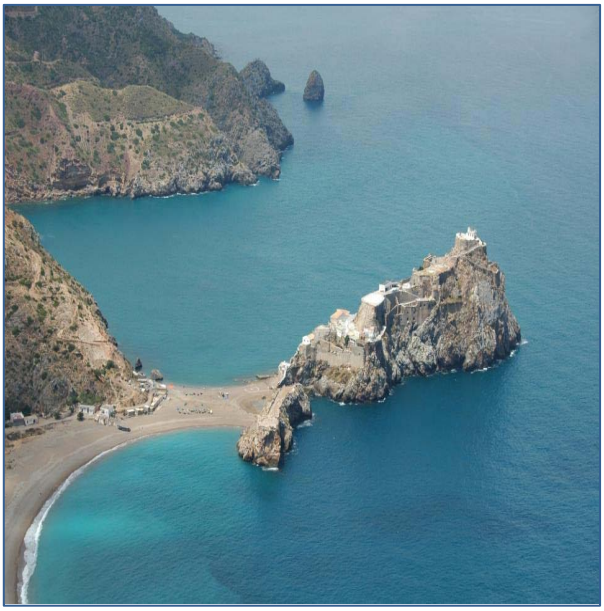

صورة رقم (٢)

جزيرة بادس

المصدر: تصوير عمر اشهبار، بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠١٣.

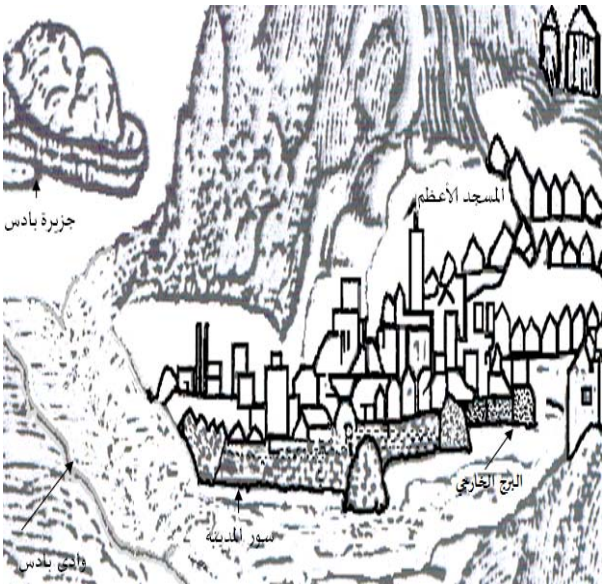

صورة رقم (٣)

رسم يظهر مرافق مدينة بادس

المصدر: رسم أمدنا به المؤرخ المختص بتاريخ المنطقة حسن الفكيكي، وقمنا بتحديد المواقع

الهَوامِشُ:

(١) **الريف** مصطلح جغرافي يطلق على منطقة في شمال المغرب. والريف الجغرافي يمتد من طنجة إلى السعيدية، أي كل الساحل المتوسطي. أما الريف اللغوي، أي السكان الذين يتكلمون اللغة الأمازيغية الريفية، فيشمل أقاليم الحسيمة والناظور والدريوش وتازة، وهي المنطقة التي يتحدر منها الأمير محمد عبد الكريم الخطابي.

(٢) مارمول كاربخال Marmol Carvajal، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٢٣٠.

(٣) الحسن بن محمد الفاسي الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، بيروت، ١٩٨٨، ص. ٣٢٥.

(٤) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، وزارة الأنباء، الرباط، ١٩٦٧، ص. ٧٩.

(٥) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص.١٠٦.

(٦) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤، ص. ٥٣٣.

(٧) أبو بكر علي الصنهاجي البيدق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار منصور للطباعة والرواقة، الرباط، ١٩٧١، ص. ٥٥. تقع **مدينة مليلة** بأرض قبيلة مزوجة، إحدى قبائل قلعية الواقعة بالناحية الشرقية من شمال المغرب على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، مساحتها ١٢ كيلومتر مربع فتحها المسلمون سنة ٦٨٩م على عهد الفاتح الإسلامي زهير بن القيس في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد حصنها المسلمون تحصينا جيدا حتى وصفها ابن خلدون بالقلعة المحصنة، احتلت إسبانيا مدينة مليلة سنة ١٤٩٧م.

(٨) علي بن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والرواقة، الرباط، ١٩٧٣، ص. ٢٣٣-٢٧١.

(٩) عن حصن تازوطا انظر :حسن الفكيكي، **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلة ١٦٩٧ – ١٨٥٩م**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص. ٤٠ – ٤١.

(١٠) تقع جزيرة بادس عند نقطة اتصال تراب قبيلتي بقوية وبني يطوفت، على البحر الأبيض المتوسط، وهي جزيرة صخرية طولها حوالي ٢٢٥ مترًا، وعرضها حوالي ١١٠ مترًا، أما علوها فيصل إلى سبع وسبعين مترا. تبعد جزيرة بادس عن مدينة الحسيمة الحالية بحوالي ٤٥ كلم بحرا، وعن مدينة تطاوين بنحو ١١٠ كلم بحرا، وكانت الجزيرة في القرن السادس عشر بعيدة عن الساحل المقابل لها بنحو ميل، لكنها التقت مع البر منذ سنة ١٩٣٣م. انظر:

Commission Historica de lascompanas de Maruecos, **Geografia de Maruecos**, Madrid, 1936, t2, P.297.

(١١) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة ١٤١٥ – ١٥٧٤**، أطروحة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رسالة مرقونة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩-١٩٩٠، ص.٥٦٧.

(١٢) المرجع نفسه.

(١٣) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م. س، ص. ٥٣٢.

(١٤) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م.س، ص. ٢٣٠.

(١٥) ايلي دولابريمودي، **المدن البحرية بالمغرب منطقة الريف**، مجلة حوليات الريف، ترجمة عز الدين الخطابي، العدد الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص. ٢٤

(١٦) لسان الدين بن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٧٦، ص. ١٤٣. ونفهم من كلام ابن الخطيب أن أهل بادس تميزوا بالشجاعة والإيثار والعلم، وانتشر بينهم التصوف، كما اشتهرت المدينة بخشبها الذي شكل أساس الصناعة والاقتصاد.

(١٧) خص قاضي بادس عبد الله محمد الأوربي (٧٠١ - ٧٨٢هـ) الولي أبي يعقوب بترجمة مهمة، ضمن كتابه: مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي. انظر أبو محمد عبد الله بن محمد الأوربي، **مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي**، يقع هذا المخطوط في ١٩ ورقة من الحجم الكبير، توجد نسخة منه بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم ٣٤٤٧.

(١٨) كانت مدينة سبتة تتمتع بموقع استراتيجي هام لإشرافها على الطريق البحرية التجارية بين جنوب أوربا وشمالها الغربي عبر بوغاز جبل طارق. و من الملاحظ أن العديد من الناس يعتقدون أن احتلال سبتة تم من طرف إسبانيا مع أن هذه الدولة لم تقم بتسليم المدينة من يد البرتغال إلا سنة ١٦٤١م. حيث احتلت سبتة في الأول من قبل البرتغال سنة ١٤١٥م.

(١٩) أبو محمد الأوربي، **مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي**، مخطوط سابق.

(٢٠) انظر تعريفه عند أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، مطبعة دار أمل، الجزء الأول، طنجة، ١٩٧٤، ص. ١٦٣- ١٦٤.

(٢١) يُعَدّ هذا الكتاب ثاني مؤلف عن التصوف ببلاد الغرب الإسلامي بعد كتاب "التشوف إلى معرفة رجال التصوف"، لصاحبه ابن الزيات التادلي، المهتم بذكر أخبار رجالات التصوف بالجنوب إلى حدود سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م).

(٢٢) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م. س، ص. ٤٦٦.

(٢٣) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ ، ص. ٠٦..

(٢٤) المرجع نفسه، ص. ٧٤.

(٢٥)المرجع نفسه، ص. ١٠٦.

(٢٦) محمد بن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ١٥٦.

(٢٧) محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب**، خلال القرنين ١٦ – ١٧، منشورات إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، الرباط، ١٩٩٨،ص ٩.

(٢٨) المرجع نفسه، ص. ١٧٧.

(٢٩) المرجع نفسه، ص. ٤٦٧.

(٣٠) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، م. س، ص. ١٦٦ – ١٦٧ – ١٦٨.

(٣١) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، م. س، ص. ١٦٤- ١٦٥.

(٣٢) المرجع نفسه، ص. ١٦٨-١٦٩.

(٣٣) حول سنادة انظر: محمد ابن عزوز حكيم، مادة "سنادة"، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء (٢)، سلا، ١٩٨٩.

(٣٤) قبيلة كانت تسمى تاريخيا بأولاد عبد الرحمان (تسمية تارجيست لم تظهر إلا بعد القرن الثامن عشر)، ويمكن اعتبارها من القبائل الوسطى، فهي الحد الفاصل بين قبائل الريف الأوسط الساحلي من الجهة الجنوبية وقبائل جبال صنهاجة. انظر عبد الرحمان الطيبي، **الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط ١٨٦٠-١٩١٢م**، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات تيفراز ن أريف، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص. ١١٨.

(35) Paul PASCON et Herman Van DER WUSTEN, **Les Bni Boufrah Essai d'écologie sociale d'une vallé rifaine**, Rabat, 1983, p.67.

(٣٦) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ص. ٢٥٣.

(٣٧) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، م، س، ص.٥١-٦٠- ٦٤- ٩٥- ١١١- ١١٢.

(٣٨) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، م. س، ص. ١٥٢.

(٣٩) مجهول، **بادس المجاهدة**، مجلة دعوة الحق، العدد١٠، السنة ١٦، مارس، ١٩٧٥، ص. ١٠٠.

(٤٠) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، م. س، ص. ٩٥-١٠٧-١٠٣

(٤١) المرجع نفسه، ص. ١٦٦.

(٤٢) الحسن الوزان، مصدر سابق، ص. ٢٥٤.

(43) Mohamed AMAN, **Diplômi barbi del archivo fiorentino**, Florence, 1883, pp.1-8.

(44) Les sources inedites de l'histoire du Maroc (**S.I.H.M**), Espagne , Tome 1, p. 80.

(45) Archivo General de Simancas (**A.G.S**). Espagne, Legajo 1054.

(٤٦) أحمد قدور، **تيطاوين المدينة والمجتمع في العصر الوسيط والحديث**، أطروحة لنيل الدكتوراه، رسالة مرقونة بكلية الآداب، الجزء الثاني، تطوان، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤، ص. ٥٥٠.

(47) **S.I.H.M**, Espagne ,T. 1, p. 80.

(٤٨) عين أبو حسون حاكما على بادس ، حيث عرف ب "ملك بادس". وشرع في مزاولة مهامه بالريف منذ سنة ١٥٣٢م. انظر:

463 **A.G.S**. Espagne, Leg.

(٤٩) عبد الرحيم شكري، **"الصراع بين المغرب وإسبانيا خلال القرنين ١٦ و١٧ من خلال وثيقة تتعلق بالجهاد البحري والأسرى ثم العلوج"**، ضمن كتاب **المغرب وإسبانيا خلال القرن السابع عشر**، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص. ٥٤.

(٥٠) حليمة فرحات، **مادة "بادس"**، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء ٣، سلا ١٩٩١، ص. ٩٦٦.

(٥١) حليمة فرحات، **مادة "بادس"**، معلمة المغرب، م. س، ص. ٧٦٩.

(٥٢) المرجع نفسه.

(٥٣) المرجع نفسه.

(٥٤) تجدر الإشارة إلى؛ أن الإسبان سبق لهم أن احتلوا جزيرة بادس سنة ١٥٠٨م، وقد استمر الاحتلال الأول للجزيرة مدة ١٤ سنة، حيث تمكنت المقاومة المغربية من استرجاعها سنة ١٥٢٢م.

(٥٥) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الطبعة الثالثة، الرباط، ٢٠٠٦، ص.٩١.